مطام

قصة ناقر هبط به عبد من الزمرة الى الحضيض

— ١ —

كنا نتحدث في الجريمة والعقاب وما يلاقيه الانسان والطبيعة من الصعوبة في جعل العقاب على قدر الجريمة موافقاً لها . وكان صديقي بول ده موبري اجتماعيًّا سيكولوجيًّا وكاتباً رشيق العبارة . فقضى نصف ساعة يورد الادلة على ان الطبيعة والانسان لم يوفقا الى استنباط انواع من العقاب توافق انواع الجرائم التي استنبطتها الطبيعة وخلقها الانسان .

قال: «الجريمة والعقاب. أية علاقة يجب ان تكون بينهما ؟ او خذ الاحسان والاعتداء. ان الحد الفاصل بينهما رقيق الحاشية حتى لنجزي المتدي ونعاقب المحسن . ونحن الرجال شارعي القوانين ومنفذي القضاء ندعي في غفلتنا اننا نستطيع ان نفرق بين عمل صالح وعمل طالح . وانا اقول لك يا صديقي الشاب اننا لا نستطيع»

فقلت : ليس الناس بقضاة معصومين

قال :كلاَّ .ولذلك يجب الاَّ ينتصبوا حق الحكم على افعال الناس اغتصاباً . فاذا التفت الى الوراء رأيت رجلاً يواجهنا ،وهو صديق قديم لي نبذ من الاجتماع،لان اقرانهُ حكموا عليه. قدعوا عملاً عملهُ جريمة وعاقبوه عليها. ولكنني لا ادري أعملهُ جريمة كان ام عملاً نبيلا ينطوي على كرم وكبر . انظر اليه تر كيف عوقب وهان

والتفتُّ الى الجهة التي عينها صديقي فوقعت عيناي على خوان من الرخام يتحنى عليه رجلٌ بل بقايا رجل ، تمذر عليَّ التكهن بسره . رأيت في عينيه الحراويين قرناً كاملاً من العذاب . وكان شعرهُ ابيض طويلا ناعماً لاحياة فيه . ولحيته كثة قذرة .ثم القيت بصري على ملابسه فلم اطق النظر اليها . وكان رجفة اخذتني لحظها صديقي فقال انك لتنفر من هذا الرجل بل انت تحكم عليه ايضاً من نظرة واحدة قبل ان تتأمل في حياته ومصيره »

وأية فائدة تجنيها من هذا التأمل . انا اعلم ان امثال هؤلاء البؤساء يعيشون. وهذا يكفينا كلاَّ ان ذلك لا يكفي قط.ولو لم تكن ذا احساس دقيق يملك عليك سبيل النظر اليه لادركت ما اريد . انظر الى جبهته وتأمل اصابعهُ . انك تدعي ان فهم الناس من اجمع الاغراض لعنايتك

والتفت ثانية متلكئاً الى تلك الحليقة البائسة فشاهدت للحال ما رمى اليه صديقي. جبهة عالية جديرة بأستاذ او عضو في مجمع علمي . وأصابع صفراء بالطبع ولكنها طويلة ، دقيقة عصبية. انك لا تستطيع ان تكر أن هذين اليدين لا يملكهما الا ارستقراطي اوفنان. ورجال الفنون يؤلفون ارستقراطية خاصة مطبوعة بطابع ابقى وأظهر من رتبة او لقب

وماذا ترى الآن ؟ فقلت ومن هو ؟

من هو ؟ هذا متحرٌ ، هو رجل قتل نفسه بكل وسيلة تقتل النفس الا تلك الوسيلة الفظة التي تقوم على ازهاق الروح واماتة الجسد . اتريد ان تسمع قصتهُ ؟ ان ذلك لا يكلفك اكثر من ثمن زجاجة من الكنياك . ولكنك قد تخرج منها بقصة من قصصك البديعة التي تقرأها في الفينة بعد الفينة . واتجه صديقي الى الخادم وطلب اليه ان يدعو المسيو هيرتو الى تشريف مائدتنا للاشتراك معنا في شرب كأس من الكنياك . فقام الرجل من مقعده متثاقلا بعدما ادار نحونا عينيه الحمراوين . ومشى اليانا كأنهُ يمشي في ارض موحلة. ودعاه صديقي الى الجلوس وقدَّم اليه وأمر له بكأس من الكنياك . ثم قال لهُ : —

ان صديقي يتمنى ان يسمع القصة التي قصصتها عليَّ من يومين وانهُ ليسرني ان اسمعها ثانية . وصديقي هذا صحافي طموح

اذاً — قال هيرتو — فصديقك شاب مفضَّل

فقال بول: انا اعلم ان صدرك موغر على الصحافيين وانك تتحامل على صناعتهم . وانا اعلم الباعث على ذلك. ولكن صديقي الشاب لا يعلم ، وهو يودّ ان يتعلم فالرجاء ان تقص عليه القصة

«وهو كذلك» ... وسكب في قدحه ما يملأ كونياكاً وشربهُ رامياً رأسهُ الى الوراء ثم لحس شفتيه واخرج من صدره زفرة عميقة واستوى على كرسيه متكئاً على مرفقيه وقال: —

كان ذلك من ثلاثين سنة ولا ريب عندي انهُ كان قبل أن تولد . بدأت القصة في باريس وفيها تنتهي. ففي هذه الدرامة وحدة واجدة على الاقل من الوحدات الثلاث التي تقتضيها كل درامة مدرسية — وهي وحدة المكان . من ثلاثين سنة كنت في الثلاثين من العمر وهو عمر ينظر فيه الشاب الى الدنيا والحياة من خلال اقداح الزهر . فأيام اللذة والمرانة قد اشهت وأنت مقبل على عهد جديد — عهد العمل المنتج — فالشهرة في ذلك السن خلابة كامرأة فتانة . وهي مثل المرأة في متناول اليد. فهو يقول غداً اشهر وان لم يكن غداً فبعد غد . انهُ كبير الثقة في نفسه

تلك كانت حالي. وكنت ساعداً للناقد المسرحي في جريدة «الا كليرور» التي كانت اعلى الجرائد الصباحية مقاماً في فرنسا حينئذ . وكنت الساعد الايمن للناقد العظيم كولان

مارتل، الذي كان يحيي او يميت كل رواية تمثيلية جديدة تخرج في باريس . وقد اختلف الناس في حل جَنَب مارتل الشهرة لجريدته ومهد لها سبيل النفوذ او هي اذاعت اسمهُ وجعلتهُ صاحب هذا المقام الذي لا يسامى . ولكن الامر الذي لم يختلف فيهِ انهما كانا معاً في شؤون الادب المسرحي قوة تحاذر . واذا خابت رجان او ساره برنار في بعض رواياتهما فتأكد ان سبب تلك الخيبة نقد مارتل اللاذع لها في الاكليرور

اذن هذا كان مقامي وأنا في الثلاثين مساعد مارتل وخلفهُ . وكان مارتل حينئذٍ في الثامنة والسبعين فلم يكن يبعد عن الظن ان يتنحى عن العمل قبل زمن طويل وأحلَّ محله

واودُّ ان تفهم ايها الشاب اني لم اقض ايامي مهللا لما أتيح لي من فرص التقدم بل على الضد من ذلك ما فتئت أعد نفسي بالدرس للمنصب الكبير الذي امامي فقرأت كل المؤلفين المدرسيين والمحدثين حتى حفظت مؤلفاتهم عن ظهر قلب . اكببت على سانت بوف وبروتيير حتى صرت في شك من صحة اساليبها النقدية . وكنت اتناول كل نقد ينشره استاذي ورئيسي فأحللهُ وافكهُ الى اجزائهِ ثم اعيد تركيبهُ من جديد . وتعلمت الانكليزية خاصة لأفهم ما كان الارلندي شو يقولهُ حينئذٍ . قد لا تذكره في تلك الايام ولكنهُ كان يقول كثيراً . وبايجاز عمدت الى كل ما يؤهلني للمنصب العظيم الذي امامي

ولكن اذا كنتَ في باريس، وكنتَ في الثلاثين، وجاء الربيع تعذر عليك ان تبقى مكبًّا على الدرس ، كتلميذ او راهب . وعلاقتي بالمسرح كانت قد مهدت لي سبيل الاتصال بكثيرين من ابنائهِ — فكان لي معارف كثيرون وصديق او صديقان . وكنت قد جربت على اجتناب كل علاقة مع اية ممثلة لان هذه العلاقة قضاء مبرم على الناقد المسرحي . وقد كنت احرص على مستقبلي حرص الشحيح على ماله . بل كان عملي في نظري أثمن من اية امرأة واسمى

كان ذلك قبلما لقيت روكسان رنوار ! هل يقيم هذا الاسم في ذهنك صورة ما ؟ لا اظن ؟ كنت في مهدك حينئذٍ . ان صديقك ده موري يذكرها . ولعلهُ يجيد وصفها اكثر مني . ان وصفها يتعذر عليَّ — ذلك لاني كنت هائماً بها . ومن يستطيع ان يصف النار الذي تلتهمهُ او الريح التي تحمله . لقد كنت الرماد في النار والورقة محمولة على اجنحة الريح

واسترسل في وصفها . فعاودتهُ بلاغتهُ القديمة ، واشعل الحبّ والالم في كلماته لظى الحياة ، فاذا هي تبرز في وصفهِ فتنة للعين والقلب معاً . ثم تنهد ومدَّ يدهُ الى زجاجة الكونياك فوجدها فارغة . فنظر اليَّ نظرة تنطوي على استفهام واستجارة فناديت الخادم وأمرت بزجاجة اخرى وملأنا اقداحنا وحسوناها . ثم استأنف كلامهُ فقال

كانت روكسان رنوار اولاً تمثل دوراً سخيفاً في عرض مسرحي . وكانت تمثل فتاة

ثروية، ساذجة، ظاهرة القلب عفيفة اللسان، تفوه بعبارات يستطاع تفسيرها بما يضحك الجمهور الباريسي المتعطش ابداً للمعاني البذيئة المستخرجة من الفاظ فتاة ساذجة فتفخت في دورها الساذج السخيف حياة ورشاقة عرفتها فيما باريس فيما بعد. فكتبتُ قطعة ثناء خاص عليها فيما كتبتهُ عن تلك الرواية الجريدة الاكليرور. لان هذه الرواية كانت من الروايات التي يعهد اليه في نقدها فلا تنزل لم يكن يتنازل الى ذلك . وقُدّمت اليها في اليوم التالي في احد المطاعم فشكرت لي ثنائي ودعتني الى زيارتها في شقتها في شارع فزاندري . فلبيت الدعوة

ولا اذكر ما دار عليه حديثنا في بدء اجتماعنا الاول ولكنهُ افضى الى حديث عن الحب. وكل امرأة تتجهُ في حديثها الى حد الحب بأسرع ما تمكنها لباقتها وأحياناً من غير لباقة على الاطلاق

ولم أتردد في توجيه الحديث الى تلك الناحية. لاني وجدت فيها ما استخفني — فتنة مخفية تحت جبانها البادي كما يبدو اللون الوردي في بشرتها البيضاء ويختفي . ومن يقف منهية في هذه المواقف لتحليل ما يرى وما يحس ؟ لانك اذا وضعت شفتيك على الكأس اغمضت عينيك وكرعتهُ الى آخر قطرة فيه . وهكذا تبعت المسائل بعضها بعضاً بخفة وظرف من غير ان تفكر في ما يلي ذلك

احببتها من ذلك اليوم . وكنت اظن انها احبتني كذلك. وباحت لي بحبها ولكن اي رجل يستطيع ان يثبت من ولاء امرأة ؟ وكان حبنا شريفاً لاننا تعاهدنا على الزواج او على الاقل هذه كانت خطتي المرسومة . لان كل علاقة بيننا دون ذلك كانت تصم حبي لها. فقد رفعتها على قاعدة كما في هيكل لاعبدها . وهذا كان خطأ مني ناجماً عن قلة خبرتي ومعرفتي بالحياة — ومن لا يخطىء مثل هذه الاخطاء في الثلاثين — واحياناً بعدها

ثم ارتكبت خطأ آخر . ذلك اني افسحت لها المجال لتفكر وتبني لنفسها شهرة في عالم التمثيل . وهذه الشهرة كانت نكبة عليّ لو استطعت ان اتوقعها لتأهبت لها . ولكني كنت في حالة لا تمكنني من ان اتوقع شيئاً الا روكسان ونفسي منطبعين غيمة السعادة الوردية تحيط بنا الملائكة من اتباع كوبد . وهكذا مكنت روكسان من الاشتهار. لان الناقد — بل مساعد الناقد — يستطيع ان يفعل ذلك اذا كان لجريدته من المقام ما لجريدة الاكليرور

على ان روكسان كانت تطمح ، على حدة ومن غير مساعدة ما ، ان تصبح ممثلة بارعة. فارتقت بسرعة مدهشة من دورها الساذج السخيف الى اعلى مقام في المسارح الباريسية . ولم تنقض عليها سنة ونصف حتى دعاها لوسيان برغ الشهير ان تمثل معهُ في روايته التالية

ولن انسى ذلك اليوم الذي افضت اليّ فيه بهذا النبإ . كنا في شقتها وكانت لا تزال — في شارع فزاندري — لانهُ رغم زيادة مرتبها كانت فتاة مقتصدة من سلالة الفلاحين

أتستطيع ان تتصور كيف افضت بهذا النبإ اليَّ — انا الذي جاهدت في سبيل شهرتها مغامراً بمنصبي ومستقبلي ؟ أأفضت اليَّ به وذراعاها يطوقان عنقي ، وشفتاها تمطراني قبلات في الفترات بين عبارة واخرى ؟ أأفضت اليَّ به ودموع الفرح والشكران تهمل من عينيها ؟ قد تظن انها فعلت ذلك . ولكنك مخطئ . ومتى تقدمت في السن قليلاً وخبرت هذه الدنيا علمت ان الناس يستقبلون انباء نجاحهم كأن هذا النجاح حقٌّ لهم ومن بناتهم وحدهم . انهم في فشلهم فقط يتجهون الى الغير باللوم والقذع

نعم . حيتني روكسان في ذلك اليوم بما حسبتهُ تحية متكلفة . كانت لطيفة في حديثها كلَّ اللطف ولكنها متكلفة كلَّ التكلف . قالت اجلس . عندي نبأ أودُّ ان افضي اليك به

فهززني الفرح ، ولم تكد تأتي على نهاية خبرها حتى ارتميت نحوها بذراعين مفتوحتين لاطوقها بهما ولكنها دفعتني بادب وحزم كأنها ترمي من حضنها كلباً اظهر من كلفهِ بها ما حملهُ على لحس وجهها

قالت : ابعد عني واجلس مكانك . يجب ان نبحث في هذه المسألة بهدوء . وفي دهشتي والمي وخذلاني سلمت بما تطلب . كما يفعل كلب مطرود مضروب

قالت : يجب ان نتحدث بهدوء لان ذلك يهمنا كلينا . ويغير من علاقتنا مساً كبيراً فصمتُّ لاني لم افهم ما تقول

قالت بصوت بارد قاس كما لو كانت تطرد طباخاً : الا ترى انهُ اذا قبلت ما عرض عليَّ لم أتمكن من ان اقبلك زوجاً يا صديقي المسكين . انا ذلك مستحيل . ان برج لا يسلم بان تكون ممثلتهُ الاولى امرأة متزوجة فأنت تعلم هذا كما اعلمهُ

وكنت اعلم ذلك . ولكنهُ لم يطرأ على بالي بالسرعة التي طرأ على بالها . فان برج كان مشهوراً باختياره ممثلاتهِ الاوليات لكي يتزوجهن . وكان قد تزوج ثلاثاً وطلقهنَّ . كان رجلاً كثير الزوجات يعرض عن الخليلات . وكان زوجاً وفيّاً لزوجتهِ ما زالت تنال رضى في عينيهِ . فاذا انقضى ذلك طلقها وتزوج من ممثلتهِ الاولى التي تليها . ومع ذلك كان ابغ اقرانهِ في التمثيل . حتى زوجاته يسلمن بذلك . هذا هو برج الذي عرض على روكسان منصب الممثلة الاولى في فرقتهِ — وهو اعظم منصب تمثيلي لسيدة في باريس

قالت روكسان — واملي عظيم بانك ترى الحالة على وجهها الصحيح . هي فرصة لن يتاح لي مثلها في الحياة . ويجب ان تفهم ، اني اكون مغفلة اذا سمحت لشيء — كعاطفة عارضة ان تحول دون ذلك . انك اول من يشير عليَّ باتخاذ الخطة التي رسمتها

ما اصدق السيدات في بعض الاحيان اكان خيراً لها ان تقول لي : « وانت اول من

يشير عليّ بسنّك اذا كنتَ تقف حجر عثرة في سبيل مطامحي ؟. ولكن كلامها الذي تلا ذلك كان احدّ واقسى اذ قالت : —

«ومن بواعث الحزن في الحياة ان المتطلع الى الاعالي يجب عليه ان يشيح بنظره عن مسرّات الحياة الصغيرة . فلا بدّ في المآتي العظيمة من التضحية . ساحاول ان أتخلى عنك بشجاعة ولكن ساحفظ لك مكاناً في قلبي . وانت تعلم مبلغ آلامي » كنت اعلم وقلت لها كذلك لاني كنت اشعر في تلك الدقيقة انني امقتها . انا لا ادعي بأني احد رجالكم الاقوياء الصامتين الذين يخفون عواطفهم ، وقلما يرفعون اصواتهم او قبضات ايديهم في ساعات الغضب . نحن من الميدي يا سيدي ، والدم يجري في عروقنا حاراً مثيراً ونحن نقول ما يمرّ ببالنا

قلت لها ما اظن من غير مواربة . بل فعلت اكثر من ذلك . اخذتها من كتفيها وهززتها حتى اخذت اسنانها تصطك خوفاً وحتى انخطف لون وجهها ثم رميتها الى الارض واخذت اكسر ما تصل اليه يداي في شقتها . واذا أنا كذلك رأيتها راكعة على ركبتيها تناشدني الهدوء فشعرت ان العاطفة لاول لحظة في ذلك اليوم هزّ اعماق نفسها

ولما دمّرت كلّ ما استطيع تدميرهُ انحنيت امامها حيث كانت راكعة ساخراً مودعاً وخرجت بعد ما قلت لها : « لا اودّ ان اراك ولا ان اكلمك ماحييت . انك احطّ امرأة حية .. واني اودّ من اعماق نفسي ان يكون الفشل نصيبك في كل ما تفعلين »

***

وتوقف جروم قليلاً ناظراً الى قدحه الفارغ فملأته لهُ في سكون فقال : —

لا اعرف مثيلاً للكونياك انهُ يحافظ على وعوده اذ لا بدّ من ان يُسكرك في النهاية . اتبت من قصتي . فاكدت لهُ انني متشوق الى سماع نهاية حتامها

« قلت ان برج كان نابغة وكان نبوغهُ متعدد النواحي فقد كان يؤلف الروايات التي يمثلها ، ويخرجها ويمثلها بنفسه وقد كان ابوهُ نابغة ولكن نبوغهُ كان ينحصر في التمثيل فقط . وفي هذا كان يفوق ابنهُ اذا كان الدور يؤاتيه لانهُ كان تراجيديًّا متفوّقاً لا غير

هذه امور مشهورة . ولكن يجب ان تذكر ان لوسيان برغ كان بعبداباهُ . ومن الغريب ان هذا الممثل التابغ — الذي كان قادراً على تبيُّن مواطن الضعف في تمثيله قبل غيره . ما كان يستطيع ان يجد سيئة واحدة في ابيه سواء على خشبة المسرح او خارجهُ . ولقد هلل الناس وكبروا لفيلكس برج ولكن تهليلهم كان فاتراً ازاء تهليل ابنه واعجابه

لك ان تحسب « عبادة الاب » من حسنات لوسيان برج اذا شئت . فأنا لا اضير له حقداً ما اذ لم يسيء اليّ في شيء من قصدٍ . انما اريدك ان تدرك هذه الصفة المتغلبة عليه . لانها ذات شأن

ان كنا آه خرجت من بيت روكسان ناسياً قبعتي فيه ولكن غضبي وكبريائي منعاني من العودة لاخذها. فشيت في شوارع باريس على غير هدى كل الليل. لا اعلم اين ذهبت. ولكنني اذكر اني وقفت طويلا على ضفة السين كأن نفسي تراود الانتحار. نعم فكرت في الانتحار ولكني لم انتحر الا بعد ذلك ببضع سنوات. وفي ساعة متأخرة من الليل وجدتني جالساً على مقعد في الشانزليزه وكانت النجوم منقبة بالضباب والنسر شاحب اللون والليل حار والجوّ يكاد يأخذ بخناقي. وانا لكذلك ابصرت فتى يسير الى جنب فتاة فضحكت اذ رأيته يقبلها ضحكة يظهر انها حلت من مرارة نفسي ما ازعج العاشقين فزادت التصاق احدهما بالآخر وابعدا عني في ثنايا الليل. ولما وصلت الى غرفتي كان الفجر قد انبلج فارميت على سريري ونمت حتى المساء. ولما استيقظت شعرت بصداع ولكن ثورة نفسي كانت قد سكنت. ونار غضبي قد خمدت ولم تترك الا رماداً. وحنقي على روكسان كان قد زال. لم انزل بها الى تحت مستوى النساء بعد ثورة الليل السابق ولكنني نزلت بالنساء الى مستواها. ولما اقتنعت ان كل النساء يبحثن عن مصلحة ولا يعرفن للوفاء معنى اصبحت لا اتألم لما حدث لي. فأكببت على عملي بهمة عظيمة كأني اريد ان اثأر لنفسي من الحب بالعمل وكان رئيسي قد اخذ يهوي فصرت احل محله في نقد الروايات الكبيرة وصار يسمح لي ان اوقع باسمي على ما اكتبهُ وصار الكتّاب في الصحف والمجلات يقتبسون مما انول

وفي الوقت المعين اخرج برج روايتهُ وكان موضوعها «لماذا تكين» ولما كان مارتل مضطرًا الى ملازمة فراشه دعيت لتمثيل الاكليرور في ليلتها الاولى

وكانت الرواية تنطبق على ما اشتهر به لوسيان برج. ولكن هل تقوم روكسان بتمثيل دورها على ما يرام؟ والواقع انها لم تكن على ما يرام فقط بل بلغت الاوج في جودة التمثيل فكتبتُ عنها كتابة تستحقها في الاكليرور. فلما اطلع عليها مارتل دعاني الى غرفته وقال: يا ابني لا بدَّ ان تكون هذه الفتاة رنوار باهرة الجمال وانت شاب حديث السن . . . . قد بلغ هذا المدى في الثناء والمديح في بعض فلتات برنار ولكنهُ غير مسموح به في تمثيل فتاة تدعى رنوار. يجب ان تكون مقتصداً في مديحك. فاذا اسيئت على رنوار هذه الالفاظ فاذا تترك للدوزي ورجان؟ فقلت لا اعرف يا استاذي ممثلة كوميدية اخرى تبلغ مبلغ روكسان رنوار

بون ديو — يا الهي — ارأيت رجان تمثل. واغمض عينيه واشار اليَّ بالخروج

واقبل الناس اقبالاً عظيماً على هذه الرواية وبعد شهر من اخراجها تزوج برج من روكسان. فلم يكن ذلك جديداً في باريس وخصوصاً فيما يتعلق ببرج نفسه

[التتمة في الجزء التالي]

العدل

صورة رمزية بريشة جبران خليل جبران

منتطف مايو ١٩٣١ أمام صفحة ٥٩٧